

قصبة مدينة دلس: تراث في حاجة إلى تثمين

د/ بن نعمان إسماعيل

معهد الآثار

مقدمة:

تعتبر مدينة دلس من المدن الأثرية الجزائرية التي مازالت تمتلك مخزونا تراثيا يبين جانبا هاما من التراث المعماري والفني للجزائر، وتبرز مكانتها في كونها كانت مركزا مهما لمختلف القرى التي كانت محيطة بها في جبال منطقة القبائل الكبرى، مما سمح لها باستقطاب عدد كبير من سكان هذه القرى لممارسة أنشطتهم التجارية ثم الاستقرار فيها، كما كانت مركزا لاستقرار الجالية الأندلسية منذ العهد الحمادي، إضافة إلى أنها كانت على صلة دائمة بمدینتي الجزائر وبجاية، هذا كله ساهم في بروز مدينة ذات خصائص متنوعة بتنوع السكان المستقرين فيها.

أولا : التعريف بمدينة دلس والتراث المعماري لقصبتها:

1 - موقع مدينة دلس:

تقع هذه المدينة على ساحل البحر الأبيض المتوسط، وتبعد عن مدينة الجزائر بحوالي 100 كلم غربا، وبحوالي 145 كلم عن مدينة بجاية شرقا، تحيط بها قرى كثيرة منتشرة في الجبال القريبة والبعيدة عنها، ويتميز مناخها بالاعتدال.

تتركب مدينة دلس من قسمين هما القصبة والبساتين، ويتركز أغلب عمرانها في القصبة التي أنجزت على منحدر هضبة مطلة على البحر الأبيض المتوسط، محمية برأس يمتد داخل البحر في الاتجاه الشمالي الشرقي طوله 600م⁽¹⁾، يسمى رأس الطرف.

2 - المخطط العام للقصبة:

حافظ الجزء الأكبر من القصبة على مواقع مبانيه الأصلية، وهو القسم الذي تقدر مساحته بـ 16.25 هكتار، ويضاف له الحي العسكري الفرنسي بمساحة 2.25 هكتار⁽²⁾، المنجز في موقع المسجد الجامع والمساكن المحيطة به.

1 - M.J.DUVAL, Tableau de l'Algérie, annuaire descriptif et statistique de la colonie pour 1854, librairie Just Rouvier, Paris, 1854, p.126.

2- Entreprise des travaux d'Alger, Rénovation du centre ville de Dellys phase (I): information et analys, 1983, p. 38 - D.U.C.H et U.R.T.O, << La Casbah de Dellys >> , in séminaire national sur la rénovation et la réstructuration urbaines, Souk Ahras (Algérie), 24 et 25 août 1985, p. 18 .

ومع بداية الاحتلال الفرنسي للمدينة تم توسيع الشارع الرئيسي، ونتاج عنه تقسيم القصبة إلى قسمين سفلي يضم الجزء الأكثر قدماً منها، وعلوي يضم الجزء المتبقي منها، وهو القسم الذي تواصل البناء فيه باتجاه الغرب طيلة الفترة الاستعمارية وما بعدها.

2-1- القصبة السفلى: تشمل تسمية القصبة السفلى المساحة المحددة بالبحر الأبيض المتوسط شرقاً، ورأس الطرف شمالاً، والطريق الوطني رقم 24 غرباً، والمنشآت الفرنسية جنوباً، وتتكون من ستة تجمعات سكانية متراسة مفصولة عن بعضها بشوارع متغيرة في اتساعها وامتدادها، وهي المشار لها بالأرقام من 1 إلى 6 في الشكل 01. ومن هذه التجمعات السكانية تشكلت أربعة أحياء هي:

* **حومة سيدي البخاري:** تسميتها منسوبة للجامع الموجود فيها،

* **حومة الدرب:** تنتسب تسميتها إلى الشارع غير النافذ الذي يتوسطها.

* **حومة سيدي الحرفي:** تسمى بهذا الاسم نسبة للضريح الموجود فيها.

* **حومة الميزاب:** يُعتقد بأن تسميتها مرتبطة بالعين الموجودة فيها، المسماة بعين الميزاب. (الصورة 01)

ولا يستبعد أن يكون حي آخر يشمل الحي العسكري الذي أنشئ في مكان المسجد الجامع والمساكن المحيطة به، وقد يكون يحمل اسم **حي الجامع**.

2-2- القصبة العليا: تقع غرباً وهي محددة بالطريق شمالاً وشرقاً، والصور المنجز في العهد الفرنسي غرباً، والشارع الذي يفصلها عن مقر البلدية جنوباً، وتشكل من أربعة أحياء (الشكل 01)، هي:

- **حومة سالم:** تسميتها مرتبطة بعائلة بن سالم التي كان لها دور كبير في تسيير شؤون المدينة في عهد الأمير عبد القادر.

- **حومة حمام الروم:** تنتسب تسميتها إلى حمام روماني كان موجوداً فيها.

- **حومة سيدي يحي:** تنتسب تسميتها إلى جامع سيدي يحي الموجود فيها.

- **حومة سيدي منصور:** سميت بهذا الاسم نسبة لضريح سيدي منصور الموجود فيها .

3- المرافق العامة للقصبة:

ترتبط هذه المنشآت والمرافق بحياة السكان مباشرة، وتتمثل في الشوارع التي تربط بين أحياء القصبة والمخازن التي يطهى فيها الخبز والعيون والآبار التي يتزود منها السكان بالماء.

3-1- الشوارع: تعتبر الشوارع العنصر الأساسي الذي يسهل الاتصال والحركة بين التكوينات المعمارية المختلفة داخل المدينة، وتتميز شوارع قصبة دلس بتنوعها من حيث الطول والعرض والتعرج والانكسارات القائمة الزوايا، وهذا التنوع مرتبط بدورها وأهميتها، وطبيعة الموقع الطبوغرافي.

وفي مراكز تقاطع هذه الشوارع توجد ساحات صغيرة مقاييسها أكبر من الشوارع، تيسر المرور لاتساعها، ويتجمع فيها السكان للراحة خاصة خلال فصل الصيف للطافة الجو فيها الناتج عن قلة تعرضها لأشعة الشمس، لوجود أسوار المباني المحيطة بها، وتستعمل أيضا لممارسة بعض الأنشطة التجارية. وقد بلطت أرضية هذه الشوارع بالحجارة المستوية الرقيقة، وزودت بدرجات عريضة، وقليلة الارتفاع للتقليل من مشقة صعود المنحدر.

3-2- المخابز: تسمى محليا بالكوشة ويبلغ عددها خمسة في القصبة، ثلاث منها تقع في القصبة السفلى، وهي كوشة كعيبش، وكوشة سي الحاج، وكوشة الهادي، وإثنتان تقع في القصبة العليا، تسمى كوشة العزلي، وكوشة بوعامر.

3-3 - العيون: كان في مدينة دّلس مع بداية العهد العثماني عدد من العيون والجداول ذكرها حسن الوزان بقوله: << ... وجل سكانها صباغون لوجود عدد من العيون والجداول بها ... >>⁽³⁾. وتمثلت العيون الموجودة في القصبة فيما يلي:

- **عين الميزاب:** تقع في المجموعة الخامسة من القصبة السفلى (الصورتين 01 و 02)

- **عين المرسى:** تقع قرب مرسى المدينة.

- **عين الشرشور:** تقع في الجهة الجنوبية للقصبة العليا.

- **عين سالم:** تقع في المجموعة التاسعة من القصبة العليا.

3-4 - الآبار: الآبار في قصبة دّلس نوعان، آبار يصلها الماء بطريقة طبيعية من باطن الأرض، توجد في فناء كل دار ورياض، وآبار يتم ملؤها بمياه الأمطار عن طريق قناة تربطها بسقف المسكن القرميدي.

4 - المنشآت الدينية:

تنتشر في أماكن مختلفة من القصبة، ويمكن تصنيفها إلى أربعة أنواع هي المسجد والمصليات وقاعات قراءة وتحفيظ القرآن الكريم والأضرحة.

4-1- المسجد الجامع: تحتوي المدينة على مسجد جامع واحد كان يسمى في العهد العثماني بالمسجد الأعظم، يقع في الجهة الجنوبية الشرقية من المدينة، في موقع غير بعيد عن باب البحر المؤدي إلى الميناء وهو مدخل المدينة الرئيسي⁽⁴⁾ (الشكل 03)، فموقعه المتميز جعله أول نقطة تحط فيها الرحال من طرف الفرنسيين بعد احتلالهم المدينة، (الصورة 03) وقبل الشروع في استعماله تم التعهد بإرجاعه بعد مدة أو بناء

³ - حسن الوزان، وصف إفريقيا، ترجمة: محمد حجي ومحمد الأخضر، ج. 02، ط. 02، بيروت والرباط، 1983، ص. 42.

4 - N.ROBIN, <<Note sur l'organisation militaire et administrative des Turcs dans la grande Kabylie>>, in *Revue africaine*, N°17, Paris, 1873, p.245.

مسجد آخر⁽⁵⁾، وقد تم استغلاله كمستودع للأسلحة ثم مستشفى، ولا يستبعد أن يكون هدم أثناء أو بعد بناء المستشفى العسكري الجديد.

ولم تتخل السلطات الفرنسية عن المسجد، مما اضطرها إلى الوفاء بوعدها وقامت ببناء مسجد آخر في موقع آخر غير بعيد عن الموقع الأول بلغت تكلفته 25.000 فرنك فرنسي دفعتها السلطات العسكرية، وسلم يوم 01 ماي 1847م⁽⁶⁾، وهو نفس المسجد الذي مازال قائما إلى يومنا هذا (الصورة 04)، وتوقف عن أداء وظائفه عقب زلزال 21 ماي 2003م الذي أثر فيه كثيرا.

4-2- المباني الدينية الأخرى: ويمكن ذكرها فيما يلي:

- جامع سيدي عمّار: يقع في القصبة العليا، وظيفته فهي تحفيظ القرآن الكريم للأطفال.
- جامع سيدي يحيى: يقع هو الآخر في القصبة العليا وظيفته تحفيظ القرآن الكريم والصلوات الخمس.
- جامع سيدي المهدي: يحد القصبة السفلى من الجهة الشرقية، وهي الجهة التي تطل على البحر، وقد أعيد بناؤه وتهدم، ولم يبق منه إلا بعض الأسوار، متعدد الوظائف، فهو مصلى ومكان لاجتماع سكان الحومة القريبة منه، ومقرا لراحتهم خاصة أثناء فترة القيلولة.
- جامع سيدي البخاري: يحد هو الآخر القصبة السفلى لكن من الجهة الشمالية، وتبعا لروايات السكان فإنه كان يستعمل لإيواء الغرباء الذين يزورون المدينة، خاصة منهم العلماء والشيوخ والطلبة.
- جامع بن صابر: يوجد في القصبة السفلى، وتتمثل وظيفته الأساسية في تحفيظ القرآن الكريم للأطفال.
- جامع القاضي: كان موجودا في القصبة العليا، وحسب تسميته يمكن أن يكون مقرا لقاضي المدينة، كما كان يستخدم كمصلى في أوقات الصلاة.
- ضريح سيدي عبد الله: يقع داخل المقبرة الموجودة شمال المدينة على سطح رأس الطرف، وبقي محافظا على مخططه الأصلي إلى غاية زلزال 21 ماي 2003م الذي دمره تماما (الصورة 05).
- ضريح سيدي غانم: يقع داخل المقبرة الموجودة شمال المدينة على سطح رأس الطرف.
- ضريح سيدي إبراهيم: يقع داخل المقبرة الموجودة شمال المدينة على سطح رأس الطرف، وبقي محافظا على مخططه الأصلي إلى غاية زلزال 21 ماي 2003م الذي دمره تماما (الصورة 06).
- ضريح سيدي زايد: يوجد في الجهة الشمالية للقصبة بجانب الطريق المؤدي إلى باب البساتين.

5 - P. CHRISTIAN, Souvenirs du maréchal Bugeaud de l'Algérie et du Maroc, tome I, Alexandre Gadot, Paris, 1845, p.286-287.

6 - M.A.VESBECQ, Dellys: petite monographie locale, L-Chaix fils et c^{le}, Alger, 1926., p.54.

- ضريح سيدي عبد القادر الجيلالي: يقع على سطح رأس الطرف غير بعيد عن نهايته الممتدة داخل البحر.

- ضريح سيدي سوسان: الذي أشارت له الروايات الشفوية، ويقع في الجهة الجنوبية الغربية على جبال أصواف في منتصف المسافة بين باب أصواف وباب الجزائر في السور الذي أنجزته السلطات الفرنسية.

- سيدي الحرفي: يقع في القصبة السفلى أعيد بناؤه في سنة 1313هـ/1895م، ومازال قائما إلى يومنا وتآثر كثيرا بفعل زلزال ماي 2003، وأعيد ترميمه سنة 2010 وكان يستعمل لأداء لصلاة وإلقاء الدروس الدينية وتحفيظ القرآن الكريم للبالغين، ومقرا لاجتماع أعيان المدينة، والاشتراك مع جامع سيدي البخاري في التكفل بالغرباء الذين يزورون المدينة، خاصة منهم العلماء والشيخو الطلبة، وذلك بضمان الأكل لهم.

- سيدي منصور: يقع في الجهة الغربية من القصبة العليا.

5- المساكن:

تمثل المساكن أكبر نسبة من مجموع منشآت المدينة، وتختلف مساحتها ومخططاتها وأقسامها من مسكن إلى آخر، بنيت جدرانها بالحجارة المصقولة، أما أسقفها فهي على شكل مائل، ومغطاة بقرميد نصف أسطواني أحمر اللون

أما تركيبها الداخلي فهي تتكون من عدة أقسام متشابهة في نوعها ومختلفة في طبيعتها (مساحتها وتركيبها)، وهذه الأقسام يمكن حصرها في المدخل، والسقيفة، والإسطبل، والفناء، والأروقة، والبيوت، والغرف، والمطبخ، والحمام، ودورة المياه، والمخازن، والرياض، والبئر.

6- المنشآت العسكرية:

كانت القصبة محاطة بسور فتحت فيه مجموعة من الأبواب، ويمكن استعراض ما توصلنا إليه من معلومات عنهما فيما يلي:

6-1- السور: أجمعت المصادر والمراجع على وجوده وكان يحيط بالمدينة، واختلفت في وصف حالته تبعا للعصر الذي ألفت فيه، فالإدريسي قال: <<... وهي على شرف متحصنة لها سور حصين ... >> (7)، ومارمول يقول: << ... تحيط بها أسوار جيدة ... >> (8)، وحسن الوزان قال: <<... تحيطها أسوار قديمة متينة... >> (9)، بينما تجمع المصادر التي تعود إلى الفترة العثمانية على أن السور المحيط بمدينة دلس عبارة

7- أبو عبد الله الإدريسي، نزهة المشتاق، تحقيق: العربي إسماعيل، ط. 02، ش.و.ن.ت، 1983، ص. 160.

8 - كارخال مارمول، إفريقيا، ترجمة: حجي محمد وآخرون، ج. 02، دار النشر للمعرفة، الرباط، 1988-1989.

9 - حسن الوزان، المصدر السابق، ج. 2، ص. 42.

عن بقايا للصور الروماني القديم⁽¹⁰⁾، وقد أشار الدكتور شاو "SHAW" إلى بعض بقاياها⁽¹¹⁾. كما أشارت مصادر أخرى إلى حالته السيئة وغياب وسائل دفاعية فيه⁽¹²⁾. وفتحت فيه ثلاثة أبواب هي:

- **باب البحر في الجهة الشرقية:** وهو الباب الرئيسي الذي كان يتم الدخول منه إلى مدينة دلس، قدوما من الميناء أو من الجهة الجنوبية، وكان يؤدي مباشرة إلى المسجد الجامع.

- **باب لاجنة (البساتين) في الجهة الشمالية الغربية:** أشار إليه الجنرال "بوجو" عند وصفه لمدينة دلس عقب احتلاله لها بقوله: >> نخرج من دلس من الجهة الشمالية الغربية، ونلاحظ بقايا لباب قديم محصن ببرج قاعدته بالية <<⁽¹³⁾، والذي لا يستبعد أن يكون اسمه باب لاجنة لأنه يؤدي إلى البساتين.

2-3 - **باب الجياد في الجهة الجنوبية:** ذكر في مخطط المدينة المنجز سنة 1844م، وحسب موقعه في هذا المخطط فهو متقدم قليلا باتجاه داخل المدينة وبعيد نوعا ما عن سورها، وهو الذي يسمح بالدخول إلى عمق المدينة، لأن باب البحر يسمح بالدخول إلى المسجد والسوق فقط.

وفيما يتعلق بالصور الذي لازالت بقاياها إلى يومنا هذا (الشكل 01)، فهو السور الذي أنشأته السلطات الفرنسية في الفترة الممتدة من 1854م إلى 1856م⁽¹⁴⁾، وفتحت فيه ستة أبواب هي باب البساتين في الجهة الشمالية الغربية، وباب القبائل في الجهة الجنوبية الشرقية، وباب أوسترليس Austerlist وباب الجزائر في الجهة الجنوبية، وباب أصواف في الجهة الغربية، وباب إيزلي في الجهة الجنوبية.

ثانيا - التغييرات التي شهدتها تراث القصة بمرور الزمن:

كان لتقلبات الزمن الأثر البالغ على تراث قصبة دلس، بحيث شهدت تدهورا عبر مراحلها التاريخية إلى يومنا هذا، كان للإنسان النصيب الأوفر منه، وما تبقى أقضت عليه العوامل الطبيعية، وأهمها زلزال 21 ماي 2003، الذي دمر الكثير من معالمها الأثرية.

1 - فترة الاحتلال الفرنسي للمدينة:

المعلومات عن عمرانها بعد الاحتلال الفرنسي لها قليلة جدا، تمثلت في تقرير عسكري أنجزه الجنرال بوجو عقب احتلاله لها ودعمه برسم تخطيطي لمسجدها الجامع، وهذا التقرير وردت فيه ما يلي:

10 - D-O.D'APPER, Description de l'Afrique, Amsterdam, 1686. p.172.

- N. DE NICOLAY, Les Quatre premiers livres des navigations et pérégrinations orientales de N de Nicolay, Lyon, 1568, p.22 .

-M-A . BERARD, Description nautique des cotes de l'Algérie, imprimerie royale, Paris, 1837, p.100 .

11 - SHAW, Voyage dans la régence d'Alger, 2^{ème} édition, édition bouslma, Tunis, 1980, p.326.

12 - G.ESQUER, Collection de documents inédits sur l'histoire de l'Algérie après 1830, librairie de la société de l'histoire de France, Paris, 1927.Collection de documents ..., p.60.

13 - P.CHRISTIAN , Op.cit , p. 283 .

14- M.A.VISBECQ, Op.cit, p.52.

-P-A.EMERY, Op.cit , tome II,

وقد حدد تاريخ نهاية الأشغال بـ 1855م في مرجع آخر، أنظر :

- مدينة دلس الصغيرة مكونة من مجموعات سكنية شكلت شوارع ومنازل موزعة على هضبة، كل مجموعة تشغل مساحة تتراوح مقاساتها بين 1600 إلى 1800م طولا على 500 إلى 600م عرضا، وكل مجموعة بها ثمانية إلى تسعة منازل. ويبلغ العدد الكلي للمساكن 110 مسكن يقطنها 600 شخص.
- يوجد فيها عدة أضرحة اختيرت مواقعها بشكل جيد.
- في وسطها توجد مساحة شكلها شبه منحرف تضللها شجرة التين.
- عند الدخول من الجهة الجنوبية الشرقية نجد على اليمين المسجد، مبنى واسع قليلاً، يتركب من ثماني بلاطات، وسقفه مكون من القش وتحمله الأقواس، ويعلوه قرميد أحمر اللون، منارته مشكلة بالحجارة المنحوتة والمجلوبة من البقايا الرومانية⁽¹⁵⁾، وهي الأخرى مهددة بالسقوط ...⁽¹⁶⁾.
- يوجد من الجهة الشمالية الغربية، بقايا لباب قديم محصن ببرج قاعدته بالية.
- وبعد استقرار الفرنسيين في المدينة شرعوا في إحداث التغييرات كثيرة أنجزوها في فترات زمنية متتالية، وأهمها التي نفذت قبل منتصف القرن التاسع عشر، ويمكن إدراج هذه التغييرات في العناصر التالية:
- السيطرة على المسجد فور الدخول إلى المدينة لقربه من مدخلها، واستغلاله كمستودع منذ الأيام الأولى للاحتلال ثم كمستشفى عسكري ولا يستبعد أن يكون هدم أثناء أو بعد بناء المستشفى العسكري جديد.
- إعداد المشاريع المتعلقة بتوسيع الشوارع الرئيسية والثانوية بإزالة المباني أو أجزاء منها (الشكل 02)، لتتلاءم مع متطلبات وسائل النقل المستجدة في ذلك العصر، ومن حسن الحظ أن هذا المشروع لم يطبق بحذافيره، فتم توسيع شارع واحد فقط سنة 1848م⁽¹⁷⁾، وهو الطريق الرئيسي داخل المدينة إلى يومنا هذا، فأدى هذا الوضع الجديد إلى تقسيم القصبة طوليا إلى شطرين، شطر سفلي سمي بالقصبة السفلى، وشرط علوي سمي بالقصبة العليا، كما سبق الإشارة إليه.
- تحويل بعض الساحات العامة والتضييق من مساحتها بمبانٍ، ومنها السوق الذي بني في جزء من مساحته مقر المكتب العربي، ثم مقر البلدية سنة 1880م والرحبة، التي بني فيها المسجد الحالي، سنة 1847م كتعويض للمسجد الجامع المهدم. (الشكلين 01 و 03).
- تهديم وإزالة كل المباني التي كانت موجودة في الجهة الجنوبية من القصبة السفلى، بما فيها المسجد الجامع والمساكن التي كانت محيطة بها، وبناء في مكانها منشآت عسكرية فرنسية سنة 1847م (الشكلين 01 و 03).

15 - أنظر الرسم التخطيطي لهذه المنارة في الصورة 03، والتي رسمت يوم 13 ماي 1844م في:

- G.ESQUER, *Iconographie historique de l'Algérie depuis XVI siècle jusqu'à 1871*, T.IV, librairie plon, Paris, 1939, planche N° 684 .

16 - P.CHRISTIAN, Op.cit, p.283 .

-N.ROBIN, <<Notes historiques sur la grande Kabylie de 1838 à 1851>>, in *Revue africaine*, N°46, Paris, 1902, p.245.

17 - P-A.EMERY, *Dellys: enquête urbaine*, tome, III, Alger, 1959, p..08

- إعادة بناء الكثير من المنشآت الدينية بطريقة حديثة، وتحويل مواقع بعضها، مثل: "جامع سيدي الحرفي" الذي كان في القصبة العليا وحول إلى القصبة السفلى التي مازال موجوداً فيها إلى يومنا هذا، كما أن بعضها قلصت مساحتها، مثل: جامع بن صابر، وجامع سيدي البخاري، وجامع سيدي عمّار لتوسيع الشوارع.
- التوسع العمراني للقصبة نفسها، فمعظم المساحات الشاغرة التي كانت موجودة قبل سنة 1844م، والمستعملة كرياض لبعض العائلات، أصبحت هي الأخرى بمبان.

2- بعد الاستقلال إلى غاية بداية ثمانينات القرن العشرين:

من خلال الدراسة المنجزة من قبل مكتب الدراسات المعمارية والإنجاز المعماري لولاية تيزي وزو (U.R.T.O)⁽¹⁸⁾، يمكن الخروج بخلاصة مفادها أن معظم التحويلات والتغييرات التي عرفت القصبة خلال هذه الفترة تركزت على المساكن بفعل التزايد السكاني الكبير الذي عرفت الجزائر بعد الاستقلال تبين ويمكن تلخيص وضعية مساكنها آنذاك فيما يلي:

- تقسيم المسكن الواحد إلى عدة مساكن فيما بين العائلات، وعدد المساكن في تزايد مستمر على حساب المساحات الشاغرة، أو بتوسيع القصبة نحو الجهة الغربية.
- التغييرات الكثيرة المستحدثة على المساكن، والتي شوهت النسيج العمراني للقصبة.
- هجرة الكثير من السكان لمنازلهم مما جعلها عرضة للتصدع والسقوط.
- قدوم فئة المستأجرين لشغل المساكن الفارغة بفعل تعدد الملاك للمسكن الواحد، مما نتج عنه إهمال تام للمحافظة والصيانة وبالتالي تعريض المنازل لمزيد من الزوال.
- تهدم المباني الدينية وتوقف البعض منها عن أداء وظيفتها.

3- خلال بداية تسعينات القرن العشرين:

استمر التدهور التدريجي للقصبة أكثر فأكثر وتقلص عدد سكانها كثيراً، مما عرضها للتدمير التدريجي، ومعظم السكان الباقين فيها أجروا عليها تعديلات طفيفة أو جذرية، وأهم ما يلاحظ عليها هو زيادة عدد المساكن المهدمة، أو هي في طريق التهديم بفعل قدمها وقلة العناية بها، أو بفعل عوامل أخرى غير مباشرة تمثلت في الرغبة في الحصول على مسكن جديد بعد تهديم مساكنهم بأيديهم للحصول على مسكن جديد، كما أن بعض السكان قاموا بتهديم مساكنهم وإعادة بنائها بالطرق الحديثة، مما شوه كثيراً النسيج العمراني للقصبة، وهذه الظاهرة نجدها أكثر في القصبة العليا.

4- مخلفات زلزال ماي 2003:

18 - U.R.T.O, Dellys: Rénovation et réhabilitation: basse casbah, commune de Dellys, Dellys , 1985, p. 29
Entreprise des travaux d'Alger, Op.cit, p.p. 55-62-64.

انطلاقاً من 21 ماي 2003م انهارت معظم مساكن ومنشآت القصبة بفعل الزلزال، وما بقي منها قائماً مهدد بالسقوط في أي لحظة، ولهذا السبب أصبحت شبه مهجورة، وقلت فيها الحركة وانعدمت فيها الحياة وتحولت إلى هكل بلا روح.

فالكثير من منشآتها انهارت أجزاء منها، أو كلها، وتغيرت ملامحها، ويمكن ذكرها فيما يلي:

* معظم المساكن تهدمت أسقفها وأسوارها الداخلية والخارجية وخاصة واجهاتها. مثل المسكن الذي انفرد بوجود ثلاث امتدادات عمرانية في واجهاته (تسمى بالقُبو)، اثنان في الواجهة الرئيسية تهدما (الصورة 07)، وواحد في الجهة الجانبية تهدم جزء كبير منه. (الصورتين 10 و 11)

* ضريح سيدي إبراهيم وسيدي عبد الله الموجودان في المقبرة تهدما كلياً. (الصورتين 05 و 06).

* ضريح سيدي منصور أصبح مملوء بالردوم واختفى تماماً.

* المسجد المنجز سنة 1847م مهدد بالسقوط خاصة المئذنة.

* تهدم قوس كان في مدخل أحد الشوارع. (الصورة 08).

5- ما بعد الزلزال إلى يومنا هذا:

قبل تدخل السلطات لمعالجة الوضع الذي آلت إليه منشآت القصبة، لابد من ذكر الأعمال التي قام بها السكان بعد الزلزال، حيث قاموا بإعادة بناء مساكنهم أو ترميمها وفقاً للطرق الحديثة حتى يتمكنوا من السكن فيها مجدداً (الصورتين 08-09).

وانطلاقاً من سنة 2005 أو قبلها بشهور قليلة انطلقت السلطات المعنية بحماية القصبة في إعداد الملف الخاص بالحماية القانونية للقصبة ومحيطها، وتقديمه للجنة الوطنية للممتلكات الثقافية لدراسته في اجتماعاتها المنعقدة بين شهري أبريل وجويلية 2005، والتي صادقت بالأغلبية على القبول بتصنيفها كتراث ثقافي وطني محمي، وتبعه صدور مرسوم تنفيذي رقم 07-276 في العدد 58 من الجريدة الرسمية يوم 6 رمضان 1428 الموافق 18 سبتمبر 2007، تضمن إنشاء قطاع محفوظ بمدينة دلس يسمى المدينة العتيقة، وتعيين حدوده كما يلي: - الشمال والشمال الشرقي: منارة دلس

- الشمال الغربي والغرب: البحر والطريق الوطني رقم 12 ومقر الدرك الوطني وباب أصواف

- الجنوب والجنوب الغربي: غابة بوعربي

وفي أثناء هذا خصصت وزارة الثقافة الغلاف المالي اللازم لإنقاذها، وبعد الإجراءات القانونية الخاصة باختيار المقاولات المنجزة للترميم، شرع في تنفيذ مخطط إنقاذ القصبة من الوضع الذي وصلت إليه انطلاقاً من أواخر سنة 2008م، والذي مر بثلاث مراحل هي:

المرحلة الأولى: خصصت للأشغال المستعجلة وتمثلت في:

- تنقية الموقع من الردوم والأوساخ المتراكمة منذ سنوات طويلة جدا.

- إزالة الردوم الناتجة عن الزلزال .(الصورة رقم 14)

- تدعيم الأسوار الخارجية لحماية المارة من سقوطها المفاجئ.

- تدعيم العناصر المعمارية داخل المباني، خاصة منها الأقواس والأسقف المهددة بالسقوط (الصورة 10).

-إزالة أجزاء من الأسوار التي لايمكن تدعيمها خوفا من سقوطها على المارة من السكان المتبقين فيها، والزوار من أصحاب المباني وطلبة الآثار والتاريخ والعمارة، والسواح الوطنيين والأجانب.

- إزالة الأشجار والنباتات التي تؤثر على أسوار المباني بجذورها وأغصانها.

المرحلة الثانية: خصصت للتدخلات المباشرة على المباني، وتمثلت فيما يلي:

*إعادة بناء أجزاء بعض الأسوار لتصبح على ارتفاع واحد، للمحافظة على مخطط البناء.(الصورة 13)

*تغطية أسطح الجدران بملاط صلب، لحماية الملاط الترابي المستعمل فيها من خطر مياه الأمطار.

* تعويض الأسقف التقليدية التي سقطت بأسطح مشكلة بصفائح معدنية محمولة بدعامات وروافد خشبية.
(الصورة 15)

المرحلة الثالثة: وهي مازالت جارية إلى يومنا هذا وتمثلت في ترميم بعض المباني العامة، مع استثناء المساكن باعتبارها منشآت خاصة ولها أصحابها، ولايمكن ترميمها بدون موافقتهم، التي يصعب الحصول عليها لكثرة الورثة، وتم توجيه الجهود لترميم المنشآت الدينية حيث تم إنجاز الأشغال التالية:

- جامع سيدي عمار وجامع سيدي الحرفي سنة 2010.

- عين الميزاب سنة 2010.(الصورة 01)

- الشروع في ترميم مسجد المدينة المنجز سنة 1847م والذي مازال قيد الترميم وأشغاله بطيئة جدا.

6- حالة تراث القصبة حاليا:

بعد مرور حوالي سنتين من توقف الأشغال – باستثناء المسجد - بدأت عيوب عدم إتقان العمل المنجز تظهر، وساعدها انعدام المتابعة من طرف الأشخاص والهيآت المكلفة بحماية هذا التراث، ومن مظاهر الحالة المتردية التي آلت إليها منشآت القصبة نذكر:

- التشققات في جدران المباني مازالت موجودة وتتكاثر وتتوسع يوما بعد يوم.

- تجميع مواد البناء المستخرجة في أماكن غير محمية من السرقة والعوامل الطبيعية، فالأخشاب اختفت والحجارة مجمعة بشكل عشوائي. (الصورة 16)
- سرقة بعض الأخشاب والصفائح المعدنية المستعملة في تغطية المباني.
- تآكل الخشب الخاص بالتدعيم. (الصورة 12)
- استمرار سقوط الأسوار في الشوارع (الصورة 18).
- نمو النباتات الصغيرة والكبيرة في الجدران والشوارع وداخل المساكن. (الصورة 17)
- تحول بعض المساكن إلى ملجأ للمخربين، بسبب عدم اهتمام أصحابها بحمايتها وعدم وجود حارس يهتم بشؤونها.

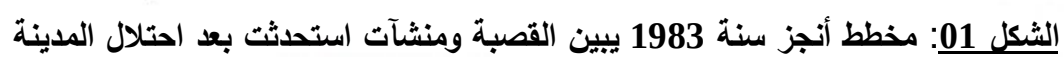
الخاتمة:

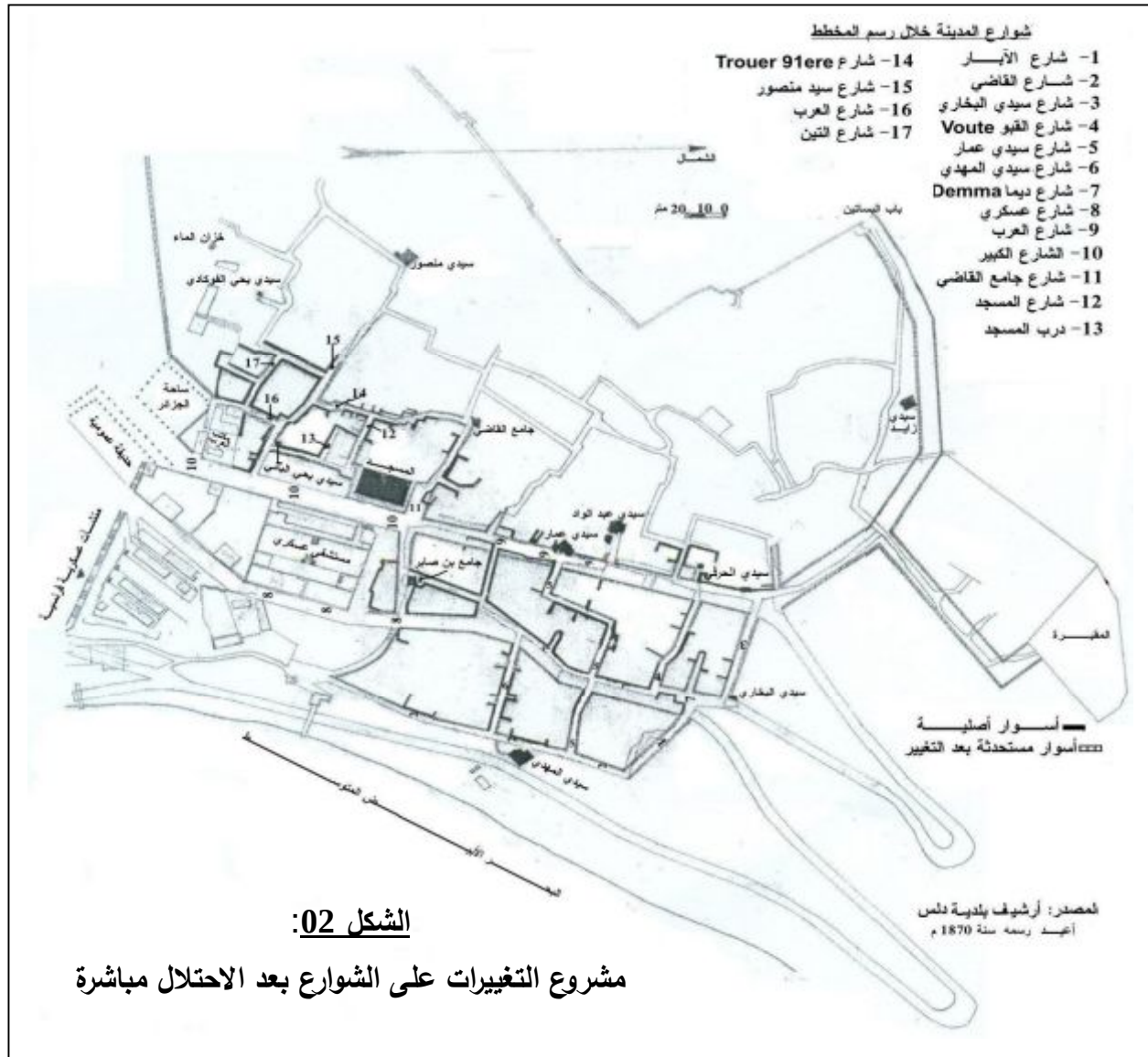
ومن خلال ملاحظتنا الشخصية على الأعمال التي تم إنجازها خرجنا بنتيجة تمكننا من القول أن معظم الأشغال المنجزة كانت بدون احترافية في اختيار مواد الترميم وطريقة التنفيذ، وهو ما يقودنا للقول أن المقاولات المكلفة بالإنجاز ليست مختصة في الترميم، ويمكن ذكر بعض الملاحظات:

- عدم صمود ماتم إنجازه لأكثر من سنتين، مثل تدعيم الأقواس الذي كان بمواد قليلة الصلابة من جهة، وبطريقة غير عملية (الصورتين 12 و 14).
- تفتت وسقوط الملاط الذي استعمل في تغطية الجدران.

ورغم توفر الإرادة لدى القائمين على المحافظة على هذا التراث العريق، إلا أن المكلفين بالتطبيق في الميدان لم يكونوا في مستوى المسؤولية الملقاة على عاتقهم، فضاعت الأموال، وبقيت منشآت القصبة تصارع تداعيات البشر والزمن عليها، وهي الآن من سيئ إلى أسوأ.

ملحق الأشكال





الشكل 03: المخطط الأصلي المفترض لقصبة دلس



ملحق الصور



الصورة 02:

الوضع الحالي لعين الميزاب



الصورة 01:

عين الميزاب بعد الترميم



الصورة 04:

صورة قديمة لمسجد 1847م



الصورة 03: رسم تخطيطي للمسجد

يوم 13 ماي 1844



الصورة 05: ضريح سيدي عبد الله قبل وبعد الزلزال



الصورة 06: ضريح سيدي إبراهيم قبل الزلزال



الصورة 07: واجهة مسكن ذو امتدادين معماريين (قُبُو) قبل الزلزال ثم الترميم



الصورة 08: قوس يعلو فتحة شارع قصير قبل الزلزال



الصورة 09: مدخل أحد المساكن في صورته الأصلية وبعد إعادة بنائه



الصورة 11: إزالة التدعيم



الصورة 10: تدعيم الامتدادات العمرانية



الصورة 13: طريقة ترميم الأسوار



الصورة 12: طريقة تدعيم الأقواس



الصورة رقم 14: شارع قبل وبعد إزالة النفايات والردوم



الصورة 16: تجميع الحجارة في مكان واحد بعد إزالة الردوم والترميم



الصورة 15: طريقة تثبيت التسقيف المعدني



الصورة 18:
استمرار سقوط المباني بعد الترميم



الصورة 17:
عودة نمو النباتات الكبيرة داخل المساكن